كلمة التحرير

العُمْرانُ في مَنظُومة القِيَم الحاكِمَة

فتحي حسن ملكاوي

نعود في هذا المقام إلى ما سمّاه شيخنا العلواني بالقيم العليا الحاكمة الثلاث: التوحيد والتزكية والعُمران، لنتناول قيمة العُمران، بوصفه مفهوماً مركزياً من مفاهيم القرآن الكريم، ولنجتهد في تقديم رؤية معرفية لهذا المفهوم من مرجعية قرآنية. فإذا كان التوحيد يتعلق أساساً بالرؤية الإسلامية للإله الخالق المدبِّر، والتزكية تتعلق بالرؤية الإسلامية للإنسان المخلوق المستخلف، فإنَّ العُمران يتعلق بالرؤية الإسلامية لوظيفة الإنسان في الكون المستخلف فيه، فيكون العُمرانُ –وَفق هذه الرؤية– قيمةً معيارية تقاس بها "قيمة" الحياة في عُمُر الإنسان الفرد، أو عُمُر الجماعة أو الأمة، وقيمةً معيارية "تُقوَّم بها" الجهود والإنجازات الحضارية "العُمرانية" للفرد أو الجماعة أو الأمة.

ونؤكد مرة أخرى أنَّ هذه القيم الثلاث تتَّصل ببعضها اتصالاً وثيقاً، فالتوحيد هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، وهي حقيقة تستمد قيمتها من ذاتها، وعنها يصدر غيرها من الحقائق. والكون كله خاضع بالفطرة لمتقضيات التوحيد، فإذا أراد الإنسان أن ينسجم مع فطرة الكون، فلا بد أن يتزكى، فيتوجه إلى الله وحده بالعبادة، فهو سبحانه "إله الناس" (توحيد العبودية)، مثما هو "رب الناس" (توحيد الربوبية) و"ملك الناس" (توحيد الحاكمية). فالتزكية موضوعها الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني، وَفقاً لما يهدي إليه الخالق الواحد من رعاية مخلوقاته وتدبير شؤونها. لذلك فإنَّ التزكية هدف العُمران ووسيلته، وهي تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشرى.

وتكوِّن هذه القيم الثلاث معاً مرجعية مقاصدية لبيان غاية الحق من الخلق، ومنظومة معيارية للقيم التي تنبثق عنها سائر القيم الرئيسية والفرعية في دين الله، ولكن

هذه المنظومة القيمية هي، في الوقت نفسه، تعبير عن حقائق الأمور ووقائعها، وليست شيئاً خارجاً عنها أو مفروضاً عليها.

ولكننا سوف نجتهد في الحديث عن العُمران من منطق "الفقه" بقيمة العمران، وعلاقة هذه "القيمة" بالحياة التي يريدها الله للإنسان، فما الفقه إلا خطاب الله سبحانه المتعلق بأفعال الناس الذين تَوجَّه الخطاب إليهم، من حيث بيان ما يريده بهم ويندبهم إليه، أو يحرِّمُه عليهم وينزِّهُهم منه. فالعُمران إذن قيمة تحدد فقه العمل في الحياة الدنيا، ولا سيَّما عمل المجتمع، المتعلق بنظم الإدارة والرعاية لشؤون الناس بتيسير سبل الحياة لهم، ورفع الحرج والمشقّة عنهم. وكما يتجلى فقه العُمران هذا في الجوانب المادية لحياة المجتمع، من أبنية وطرق، وزراعة وصناعة، يتجلّى كذلك في الجوانب المعنوية لحياة المجتمع في استتباب الأمن، وإقامة العدل، وممارسة الشورى؛ فيكون شأن الخاصة من الأغنياء والحكام هو السهر على مصالح الناس والرحمة بهم، ويكون شأن العامة من الناس الدعاء للأغنياء والحكام بالخير ومزيد من البركة، والقوة.

ويوم فَقِهَ المسلمون "فِقْهَ العُمران" على هذا الوجه، كثر الخير فيهم، وانتشرت مؤسسات العلم بينهم، ففتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، وأكلوا من بين أيديهم ومن تحت أرجلهم، وأبدعوا من أساليب رغد العيش، وأشاعوا من قيم الرقي والحضارة، ما جعلهم قبلة للأمم الأخرى.

ويوم غفل المسلمون عن "فِقْه العُمران" على ذلك الوجه، ضعف شأنهم، وانهار سلطانهم وخرب عمرانهم، وتسلط عليهم عدوُّهم. وقد كان من وجوه الغفلة ضعف الهمة والتخاذل عن صعود القمة، وإيثار حياة الخمول والكسل. وقد أسهمت في ذلك أحياناً، علوم غريبة وفهوم سقيمة، ليست من فقه الشريعة في شيء، روَّجت لتحقير الحياة الدنيا، وإنكار قيمتها، والإعراض عن شؤونها، والإهمال في رعاية شؤون المجتمع وحفظ مصالحه، والانتماء للأمة وأداء حقوقها.

وسوف نبدأ حديثنا على العُمران -على عادتنا في تناول المفاهيم القرآنية- باستقراء ما ورد عنه في لغة القرآن، ثم نتحدث عن العلاقة التي يبنيها القرآن الكريم بين

إعمار الأرض وطبيعة الحياة عليها، والمصير بعدها. وليس من المناسب أن ينتهي الحديث عن العمران دون الإشارة إلى عبد الرحمن بن خلدون الذي استلهم الهَدْي القرآني لينشئ عِلْماً جديداً أسماه علْمَ العُمران البشري.

أولاً: العُمران في لغة القرآن

جاءت مادة عَمَرَ في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرَّة؛ في ثلاث منها على صيغة اسم علَم "آل عِمران" ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣) و"ابنة عمران" ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم: ١٢) و"امرأة عمران" ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (آل عمران: ٣٥)

وثلاث مرات منها اسماً لنُسك العُمْرة التي تتمُّ في سائر أيام العام، مما يُبقي المسجدَ الحرام عامراً بالمعتمرين ومعموراً بهم على مدار العام، على حين يأتي الحج مرة واحدة من العام.﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ ... فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ...﴾ (البقرة:١٩٦)

وجاءت في ثلاث مرات متعلقة بعُمران المساجد وبنائها وخدمتها والإقامة فيها: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التوبة: ١٧-١٩). وجاءت مرة واحدة إشارة إلى البيت المعمور: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ (الطور: ١-٤) الذي قد يكون المسجد الحرام الذي يعمره الناس، أو يكون بيتاً في السماء تعمره الملائكة.

وجاءت ثلاث مرات أخرى بمعنى الإقامة والاستقرار في الأرض وفلاحتها وبناء المساكن وتشييد القصور والأخذ بأسباب الحضارة والتخلي عن حياة التنقل والبادية. وقد تحدث الله عن أقوام أقاموا في الأرض مدة طويلة وامتلكوا فيها القوة وزرعوا الأرض واستخرجوا معادنها ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الروم: ٩) ولعلَّ هؤلاء هم عاد، قوم نَبيِّ الله هود، الذين بَنَوا المباني في المرتفع من الأرض وشيدوا القصور والحصون ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (الشعراء:١٢٨-١٢٩) ويظنّون أنّهم مخلدون في هذه الأرض على طول الزمن.

وجاءت مرة واحدة بمعنى الحياة حين أقسم الله سبحانه وتعالى بحياة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر: ٧٢)

أما بقية المرات، فجميعها إشارة إلى مرور الزمن في حياة الإنسان حتى يمرَّ من عُمُره سنين، أو يطولَ عُمُره، أو يبلغَ أرذلَ العُمُر: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ ... ﴾ (الأنبياء: ٤٤) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (النحل: ٧٠)

ولا شك في أنَّ مرور الزمن أمر مطلوب لإنجاز الأعمال وتنفيذ المهمات وتحقيق الأهداف، فمرور الزمن عنصر في نموّ الفرد الإنساني وتحقُّقِه ببعض الخصائص، واستكمال بعض المتطلبات المادية والمعنوية. ومرور الزمن عنصر في تحقق المجتمع بمستوى معين من مستويات البناء والتشكل الحضاري. ولمالك بن نبي معادلة تجمع عناصر الحضارة يتبين فيها دور كل من جهد الإنسان في جمعه للأسباب المادية، ومرور الوقت الكافي لتطوير مؤسسات الحضارة وأدواتها. لكنَّه يرى أنَّ اجتماع هذه العناصر الثلاثة: (الإنسان+ التراب+ الوقت)،[1] لا تنتج عنه بالضرورة حالة حضارية، وإنَّما

[1] ابن نبي، مالك. **شروط النهضة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر، ١٩٧٩م، ص٤٤.

يحتاج ذلك إلى قدر من الطاقة الروحية، أو الشعلة القادرة على تفعيل هذه العناصر واستثمارها لتؤدي دورها في الإنجاز الحضاري.

وما يقابل العُمران في اللفظ القرآني هو الفساد، والقتل، وسفك الدماء، والهدم، والخراب، والتدمير، والخواء؛ إذ وردت جميع هذه الألفاظ في القرآن الكريم، في مقابل بقاء الحياة واستمراها على السنن والقوانين الجارية، وبقاء المساجد عامرة بالعابدين الذين يذكرون الله، وانتظام الحياة على هدي الله.

وعلى هذا يأتي العُمران في اللفظ القرآني بعدد من المعاني المتداخلة التي تمثل حقلاً دلالياً، تتكامل دلالاته، فهو يعني:

١. حالة الحياة:

إذ تتحقق حياة الفرد الإنساني مع مرور الوقت وتوالي الأيام والسنين طيلة عُمُره في حياته على الأرض: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (الشعراء:١٨)، فالفرد الإنساني يبدأ حياته في بطن أمه، ثم يخرج إلى الحياة الدنيا، ثم ينتهي عُمُره فيأتي عليه الموت وتنهي حياته الدنيا، فيكون في بطن الأرض، حتى تقوم القيامة فيقوم إلى الحياة الأبدية الأخرى. ويبدأ الفرد الإنساني حياته الدنيا وليداً، ثم طفلاً لم يبلغ الحلم، ثم يبلغ أشدَّه، ثم يكون شيخاً كبيراً، ويصل إلى أرذل العمر. ومثلما يكون للفرد عُمُره في الحياة، يكون للأمة عُمُرها كذلك، فيمر عليها الزمن سنين وأجيالاً، محتفظة بحياتها؛ حضوراً وسلطاناً واستقراراً، في كينونة محددة، فإذا انتهى عمرها، يتوقف وجودها، فتندثر وتختفي هويتها، ويزول سلطانها، وتنتهي إلى التدمير، وتصبح بيوتُها التي كانت عامرة بأصحابها خاوية خربة، غير مسكونة: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٥١-٥٢) والعُمُر بمرور الزمن قد لا يُعدُّ في القيمة والاعتبار حياةً، إذا لم يكن العمر عامراً بالحياة التي يريدها الله للإنسان حين يستجيب لما يدعوه الله إليه، مما تكون به الحياة الحقيقية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤) ودون استجابة الناس لدعوة الله إلى

ما تتحقق به حياتهم، بامتلاء أعمارهم بقيم الحق والخير والصلاح، لا تكون لأعمارهم قيمةٌ حقيقية، ولا تكون حياتهم في نهاية المطاف إلا ضلالاً وباطلاً.

وما يقابل معنى الحياة في أثناء عمر الإنسان على هذه الأرض، هو انتهاء الحياة بالموت، فإعمار الأرض مرتبط ارتباطاً مباشراً بالحياة في هذه الأرض بَرًّا وبحراً وجوّاً، وحفظ حياة الأحياء في أوساط الحياة المختلفة، وتجنب إنهاء الحياة بالقتل وإفساد أسباب الحياة ووسائلها. فمعنى الإحياء الوارد فيما سبق يتصل اتصالاً مباشراً بعمران الأرض وإحيائها على مستوى التوظيف السليم لكل ما استودعه الله فيها، في برِّها وبحرها وجوِّها من الأشياء والظواهر والطاقات.

٢. الإقامة والسكنى والبناء في مكان محدد:

فالعُمران هو الاستقرار في مكان محدد والتوطن فيه، والتخلي عن حياة التنقل في البادية والرحيل من مكان إلى آخر، واللجوء إلى الفلاحة والزراعة وتشييد المساكن والقصور واتخاذ المصانع لتوفير متطلبات الحياة المستقرة وتطوير أسبابها وأدواتها، ويتم هذا الاستقرار في الحياة في القرى والمدن، وبناء البيوت فيها، وهي حياة حضرية تنشأ في الحواضر من القرى والمدن المستقرة، بدلاً من الحياة البدوية المتنقلة في البادية. وقد جاء في القرآن الكريم على لسان نبيّ الله يوسف عليه السلام، أنَّ انتهاء عائلة يعقوب من حياة البدو وانتقالهم إلى المدينة كان فضلاً من الله وإحساناً: ﴿... وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ...﴾ (يوسف: ١٠٠) وقد يكون في البادية بعض العمران المادي أو المعنوي، لكنه غير عمران الحاضرة، فأرض البادية قد تكون معمورة ببعض الساكنين في بعض الأحيان، ثم تكون قفراً ليس فيها ساكن يعمرها، وقد أخذ الناس هذا المعنى القرآني للعمران، فقالوا: البيت العامر، أي البيت المسكون بأهله، والمعمورة: أي الكوكب الأرضي المعمور بالجنس البشري،[٢] وانتشر العمران في البلد، أي كَثُر فيه من الناس مَنْ بَنَى البيوت وسكنها.

[٢] في حدود علم الإنسان أن الأرض هو الكوكب الوحيد المعمور بالناس.

٣. العُمران المادي:

والعمران المادي للأرض هو الجانب المادي من الحضارة البشرية، ويتحقق نتيجة تراكم الخبرة والتجربة، مع مرور الوقت، وتطور معرفة الإنسان واكتشافه للسنن والقوانين التي تحكم الأشياء والظواهر، وملاحظة اضطرادها، واستشراف وقوع الأحداث والظواهر وتوقعها، ومن ثمَّ استغلال ما تُتيحُه من فُرَص، وتجنُّب ما تُمثِّله من تحدِّيات، وبذلك تزدهر العلوم وتتطوَّر تطبيقاتها، ويتحقَّق للإنسان بذلك التمكين في الأرض وتسخيرها، فيشيد فيها المباني والقصور، ويشق الطرق ويقيم الجسور، ويبني المصانع، وينتج البضائع، ويطور وسائل الانتقال: سيارات وقطارات على البر، وسفن في البحر، وطائرات في الجو،... وغير ذلك مما يكون فيه مظاهر العمران، وتمتلئ به أنماط الحضارة التقليدية، إضافة إلى ما وصلت إليه الحضارة الرقمية الافتراضية من اختراعات حديثة، تجعل الناس يلتقون ويتحدثون ويتبادلون العلوم والفنون والمنتجات، دون أن يغادر أحدهم فراش نومه!

ويكون إعمار الأرض باستصلاحها بالفلاحة والزراعة، وتنمية سبل الرزق حتى لا تبقى في الأرض مساحات معطلة من الإنتاج، ولا تبقى بين الناس أيدٍ معطلةٌ عن العمل، ويكون إعمار الأرض بالبناء عليها، وتيسير سبل السعي فيها من طرق وأساليب في الانتقال والتواصل بين ساكنيها: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ...﴾ (الروم: ٩)

ويكون إعمار الأرض إعماراً لبرِّها وبحرها، وقد جمع الله سبحانه وتعالى البر والبحر في حالة الفساد الذي أحدثه الناس في الأرض: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ...﴾ (الروم: ٤١) ولتجنب هذا الفساد، لا بد من إعمار البحر، مثل إعمار البر، وما تقوم به بعض المجتمعات من دفن الفضلات النووية والمشعة في البر والبحر إنما هو إفساد للبر والبحر وما تنفثه المصانع والآلات من الملوثات إنما هو إفساد للجو أيضاً إضافة إلى إفساد البر والبحر.

٤. العُمران الفكري والثقافي:

وهو الجانب المعنوي من الحضارة البشرية، ويتحقق نتيجة تطور خبرة الجماعات والشعوب فيما يتعلق بتنظيم أمور الحياة الاجتماعية والمعيشة الاقتصادية، وسنّ القوانين والأنظمة التي تدير العلاقات بين الناس المقيمين في المكان، فتنشأ الثقافات، وتتكرَّس الأعراف والعادات، ويتقبَّل الناس الخضوع لسلطة الإدارة والحكم لتحقيق الأمن والاستقرار. ولعلّ القدرات التي زود الله بها الإنسان على سائر المخلوقات حتى الملائكة، حين علمه الأسماء كلها، كانت جزءاً من عملية التمكين في الأرض، حتى يتمكن من أداء مهمة العمران، في هذا الجانب المعنوي والثقافي من الحضارة البشرية.

وإذا كان الله سبحانه قد أثنى على من يَعْمُر مساجد الله، فإنه في المقابل قد ذمَّ من يسعى في خرابها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ...﴾ (البقرة: ١١٤) وقد أرسى الله سبحانه في حياة الناس سنناً تحقق حكمة الخلق والتنوع والاختلاف، منها سنّة التدافع بين فئات الناس، وهي السنة التي تحفظ بيوت الله التي بنيت لذكره وعبادته من أن تُهدمَ كلما بنيت: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ...﴾ (الحج: ٤٠) فَدَفْعُ الله المؤمنين من عباده لمواجهة أعدائهم، هو الذي يبقى المنشآت التي أقامها الناس لعبادة الله، قائمة يعمرها الناس بالعبادة والذِّكر فلا تهدم أو يتوقف عمرانها.

ومن هذه السنن أن يجتمع الناس على أنظمة وقوانين تنظم شؤونهم فيقبلون بحاكم يحكمهم، ويلجأ الحاكم إلى مشورة أهل الرأي ممن ينتخبه الناس، فينزل على رأيهم، وينشأ بين الناس من أهل الحكم والقضاء من يفصل في منازعات الناس ويضبط حقوقهم.

ومن هذه السنن اختلاف الناس في كسبهم من العلم والمعرفة، فيلجأ قليل العلم إلى سؤال الأكثر علماً، فتنشأ المدارس والجامعات، ومعاهد التدريب والدراسات، ومراكز البحث وحل المشكلات. كل ذلك وأمثاله من مظاهر التطور والرقي العمراني

في الفكر والثقافة والتنظيم والإدارة، فالناس بها يتفاخرون، وعليها يتنافسون، وعلى أساس كسبهم فيها يصنفون، فمنهم بلاد العالم الأول في تقدمه، ومنهم بلاد العالم الثالث في تخلفه.

ومن السنن المستقرة والقوانين الثابتة التي تسير وَفْقها حياة الناس في الأرض أنَّ عمرانَ البلاد وخرابَها، وطيبَ الحياة وبؤسَها، إنَّما هو نتيجة لأعمال الناس وممارساتهم، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم أنباءً عن أمم بلغت من العمران المادي والمعنوي شأواً بعيداً، لكنها لم تشكر نعمة الله، فركنت إلى الظلم؛ ظلم النفس وظلم الآخرين، فقضت سنة الله بهلاك أهلها بسبب ظلمهم، فأصبحت البلادُ خاويةً على عروشها، ومظاهرُ الحضارة والعمران مادةً لا روح فيها؛ فالقصور المشيدة لا تزال قائمة، لكنها خلت من ساكنيها الظالمين، ولم تغن عنهم قصورهم أو عمرانهم شيئاً. أمَّا مظاهر الحضارة والعمران، والماءُ روحها، فلا تزال صالحة للاستعمال، لكنها أصبحت معطلة لا تجد من الناس من يوظفها، ويستفيد منها، وبقيت شاهدة على ما وصل إليها أهلها من عمران لم يحفظوه ونعمة لم يشكروها: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ (الحج: ٤٥)

الهلاك هنا لم يكن خراباً للمباني والقصور، نتيجة زلزال مدمر مثلاً، ولم يكن نتيجة تعطل أسباب الحياة الأساسية، مثل عدم توفر مصادر المياه: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠) لكن الهلاك أصاب الناس مع بقاء العمران المادي قائماً، وبقاء أسباب الحياة وافرة. ولعلَّ في هذه الحقيقة تفسيراً لما تعاني منه بعض مجتمعاتنا العربية والإسلامية، التي يتوفر فيها الكثير من مظاهر العمران المادي وأسباب الرغد في الحياة المادية، لكنَّ النَّاس ركنوا إلى حياة الكسل، والاستهلاك، والاعتماد على الآخرين، لتأمين أسباب الحياة، فليس لهم قوة تردع عدوهم، ولا إنتاج يغنيهم على غيرهم، ولا سياسات عادلة في الحكم توفر لهم الاستقرار والأمن، وتبني روح الانتماء إلى المجتمع والحرص على مقوماته، ولا نظم عادلة في الاقتصاد، توفر

للناس فرص العمل، وتستهدف الإنفاق في الأولويات والضروريات من الإنتاج الزراعي والصناعي.

مثل هذا الواقع جعل الحياة عند أكثر الناس في حالة من "الهلاك"، و"الخواء". وبدلاً من أن تمتلئ حياتهم بالعمل الصالح، والجهد المصلح، والعطاء المتصل، والأمل المتسع، والإسهام المبدع، فيكون لهم بذلك موقع الريادة في الحضارة المعاصرة، أو على الأقل المشاركة الفعالة والإسهام المتميّز فيها، امتلأت حياتهم بالتشكي والتحاسد والتلاعن والتطاعن؛ الأمر الذي أوصلهم إلى اليأس من إمكانية الإصلاح؛ فهم هلكى وموتى وهياكل حياة لا روح فيها.

ثانياً: العُمران والحياة

ارتبط معنى الإبقاء على الحياة في لغة القرآن الكريم بعملية الإحياء، ذلك أنَّه: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢) فالإعلاء من قيمة الحياة وإقرار قُدسيتها والمحافظة عليها: هو إعمار للأرض؛ وقتل الحياة إفساد فيها. وربّما أخذ "الراغب" معنى العُمُر من عمران بدن الإنسان بالحياة،[٣] وكما أن الاستعمار هو طلب الإعمار، وفعْلُ الإعمار والتعمير هو الصورة التي تتحقق بها الخلافة في الأرض، كلِّ الأرض، ما دامت الحياة على الأرض: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فإنَّ الوجه النقيض لفعل العمران وتحقيق الخلافة في الأرض، هو السعي فيها فساداً. وأشدُّ صور الفساد والإفساد هو قتل النفس وإنهاء حياتها.

إن قيام الفرد الإنساني بأمانة الخلافة في الأرض ومهمة العمران فيها، هي وظيفة تُعَمَّر بها حياةُ الفرد حتى انتهاء عمره بالموت، وتمتدُّ لتعَمِّر حياةَ غيره بعد موته، بالصدقة الجارية، والعلم النافع، والولد الصالح: "إذا مات العبد انقطع عمله إلا من

---

[٣] الأصفهاني، الراغب. **معجم ألفاظ القرآن الكريم**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، مادة عَمَر.

ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له،"[٤] فضلاً عن عمران حياته الأبدية في الآخرة. وهي أيضاً وظيفة ممتدة للنوع الإنساني، من جيل إلى آخر ومن أمَّة إلى أخرى، طيلة عهد النوع الإنساني على هذه الأرض. وإذا اختل هذا العمران وتعطل بالفساد، تحوّلت معيشة الإنسان في الدنيا إلى ضلال وضنك: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: ١٢٤) فالعُمرانُ حياةٌ وفق هداية الله، وهي خير وبركة في الدنيا والآخرة، والفساد معيشته ضيق وضنك في الدنيا والآخرة.

فقيام الإنسان بوظيفة الإعمار في الأرض استجابة لدعوة الله سبحانه لما فيه حياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤) ورفض الاستجابة لله والرسول والتولّي عنهما هو سعي في الأرض بالفساد والإهلاك: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥) وأيّما فرد يتولَّى عن دعوة الله لإقامة الحياة، ويسعى في الأرض فساداً، ويهلك الحرث والنسل، فإنَّ نتيجة ظلمه وإفساده لا تقع عليه خاصة، وإنما تمتد لتكون النتيجة عامة للحرث والنسل، إذا لم تأخذ الجماعة على يديه فتمنعه من إيقاع الظلم والإفساد. وأيّما أمّة من الأمم تتولى عن دعوة الله لإقامة الحياة وإعمار الأرض وابتغاء الرشد، وتسعى في إيقاع الظلم والإفساد، بسفك الدماء في الحروب الظالمة، وتعطيل مصالح الناس في كسب الرزق من جنبات الأرض زراعة واستصلاحاً، والإسراف في استخدام طاقات الأرض بغير رشد، وملئها بالسموم والملوثات، فإن نتيجة ذلك ستكون إهلاكاً للحرث والنسل في الأرض كلها، وفتنة تصيب جميع الأمم، إنْ لم تقمْ أمم الأرض بالأخذ على يد الأمة الظالمة والمفسدة. فهذه الأرض التي استخلف اللهُ الإنسانَ فيها

[٤] النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٥م، كتاب الوصية، باب ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم١٦٣١، ص١٠١٦.

هي سفينة، إنْ غرقت غرق كلٌّ من فيها من الصالحين والفاسدين على حدٍ سواء، أمَّا حسابهم فهو شأن الله سبحانه يتولاه بعِلْمِه ورحمته وعدله.

الحياة الطيبة في الدنيا تتحقق إذن من سعادة النفس، وصلاح البال، وعموم الخير، واجتماع الناس على الألفة والمودة، وشيوع الأمن، وتحقق التعارف والتعاون، وتوفر أسباب الرغد...حين يعمُرُها العمل الصالح؛ صلاحاً وإصلاحاً: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧) وتصبحُ حياةَ ضلال وضنك، عندما يتناوشها الفساد والإفساد. وينطبق ذلك في حالة الفرد وفي حالة الجماعة والأمة والبشرية كلها؛ أمَّا الحياة الطيبة في الآخرة فهي جزاءٌ أحسن، ونتيجةٌ أفضل، تترتَّب على عُمران الدنيا بالعمل الصالح، والجهد الإصلاحي.

وحياة الناس في الدنيا لا تتحقق إلا باجتماع الناس وتعاونهم على شؤونها؛ ذلك أنّ "الإنسان مدنيٌّ بالطبع" لا يعيش الفرد منهم وحيداً منفرداً، ولكنَّه يعيش في أُسْرَة، تنتظم حياتَها أحكامٌ وعلاقات وأنظمة ومسؤوليات، وتتجمَّعُ الأُسَر في جماعات وفي شعوب وقبائل وأمم، وتتوزَّعُ في مجتمعات ودول، وتنشأ بينهم علاقات تعارف وتعاون وتبادل للمنافع، مما يكون في حالة السلم، كما تنشأ بينهم عداوات وتنافسات وحروب. وتنشأ في حياة الناس أنماط معيشية مختلفة، من الطعام والشراب واللباس والمباني وأساليب الانتقال والاتصال؛ ويكون لكل فرد سيرته، من الغنى والفقر، والصحة والمرض، والعلم والجهل؛ ويكون لكل أمَّة تاريخُها، من بداوة وحضارة، وتخلُّف وتقدم، وعلوم وصنائع... وهكذا. ثم يأتي من يكتب السيرة والتاريخ، فيحتاج إلى الفهم السليم لطبيعة العمران البشري، وقوانين هذا العمران في أحواله وتحولاته، حتى يتمكن من توثيق الأحداث والوقائع وامتحان الروايات سنداً ومتناً، مهتدياً بما يعْلَمُه من حقائق الأشياء وطبائع الأمور.

ولم تكن حياة الناس على هذه الأرض عبثاً، فقد جاء خلق الإنسان لغاية محددة هي عبادة الله سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) ولفهم

معنى العبادة في سياق الغاية من خلق الإنسان جاءت الآيات الأخرى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) فالخلافة في الأرض هي معنى العبادة، والخلافة هي إعمار الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١). فالعمران هو شأن الإنسان في حياته الدنيا، في هذه الأرض، ليتولى فيها العمران وليقوم بحمل الأمانة. وإذا كانت كل المخلوقات -غير الإنسان- تعبد الله وتسبح له، وتخضع لسننه طائعة غير مختارة، فإنَّ الإنسان في حياته الدنيا يأتي بالعبادة اختياراً، مثلما يؤمن بالتوحيد اختياراً.

لقد جاء خلق الإنسان من الأرض، فكانت الأرض قبل الإنسان، ثم جاء الإنسان ليكون خليفة في الأرض، ولذلك فإنَّ الله قد حمَّله أمانة الخلافة في الأرض، بعد أن مكَّنه فيها: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ (الأعراف: ١٠) وسخَّرها له: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠) ولذلك فهو مسؤول عن القيام بهذه الخلافة على وجهها. وتلك هي العبادة الحقة؛ فهي غاية الحق من الخلق.

ولا تغيب العلاقة بين العمران والحياة في تحليلات ابن خلدون، حياة الأفرد وحياة المجتمعات وحياة الدول؛ فهو يتحدث عن أركان ثلاثة للعمران البشري على هذه الأرض: الركن الأول هو تقوى الله، وهو حياة للقلب بتزكية النفس من الأهواء والشهوات، والركن الثاني هو السعي في الزرق، وفيه حياة المجتمع بالتعاون والتكافل والتكامل، لأنَّ الإنسان لا يستطيع بمفرده أن يستجمع متطلبات المعيشة والأمن. أما الركن الثالث فهو العدل في الحكم؛ وهو حياة الدولة بالعصبية واستجماع متطلبات السلطان.

ويمكن تمثيل مركزية العُمران في حياة الإنسان في المخطط الآتي الذي يرسم منظومة المفاهيم القرآنية؛ إذ تظهر غاية الحق من الخلق وهي العبادة، في بداية المخطط، فغاية خلق الإنسان في الحياة الدنيا هي القيام بعبادة الله، وهذه هي الخلافة في الأرض. ولكي تتحقق الخلافة في الأرض جاء تمكين الإنسان فيها، فهي مُسخّرة له، والإنسان

ليس غريباً عن الأرض فهو منها، ولذلك فإن الله طلب منه إعمارها: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾ (هود: ٦١) وقيامه بالإعمار إذن هو استجابة لدعوة الله لما فيه حياته الطيبة في الأرض، وحياته في جنات النعيم؛ وتلك هي العبادة بمعناها الأشمل، ولهذا فإن العبادة تظهر في نهاية المخطط، بوصفها التعبير الكلي عن المقصود بالعمران في الأرض.

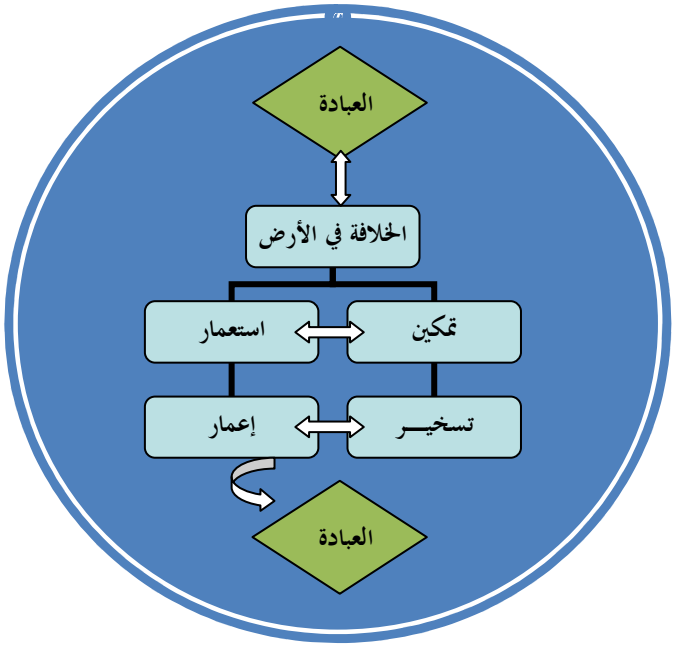

ثالثاً: العُمران الخلدوني

نفرد هذا العنوان الفرعي هنا للتأكيد على أنَّ ابن خلدون التقط مصطلح العُمران القرآني، وأنه أدرك قدراً كبيراً من "فقه العُمران"، وانتبه إلى كثير من دلالاته الـــتي لم يدركها مَنْ سبقه، وربّما لم يَبْنِ عليها كثيرٌ ممن لحق به. كتب ابن خلدون (المتوفى عام ٨٠٨هـ) كتاب التاريخ المعروف باسم: **"كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أخبـــار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"**، وكتب مقدمتـــه

لهذا التاريخ، فعُرِفت "**المقدمة**" أكثر مما عرف "كتاب العِبَر" ومع أنَّها مقدمة لكتاب في التاريخ، وهو عِلْم معروفٌ في عهده وفي عهود سابقة على عهده، فإنها تضمنت فصولاً متنوعة يجعلها الباحثون الآن من موضوعات العلوم الاجتماعية والإنسانية، التي نشأت في صورة علوم مستقلة، بعد ابن خلدون بكثير.

وقد ذهبت الدراسات الخلدونية مذاهب شتى في تقويم ما كتبه ابن خلدون في المقدمة، فالباحثون عدّوه منشئاً لعلم الاجتماع ولعلم السياسة ولعلم التربية ولعلم الاقتصاد ولكثير من العلوم الأخرى.[٥] إلا أنَّ المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي ربَّما كان أكثر دقة حين جعل مقدمة ابن خلدون فلسفة للتاريخ، وأنَّه عمل إبداعي غير مسبوق، فكتب يقول: "لقد كان ابن خلدون نقطة الضوء الوحيدة في سماء زمانه، بل الشخصية المبدعة الوحيدة في تاريخ الحضارات... ويبدو أنه كان في اختياره لحقل نشاطه الفكري غير متأثر بمن سبقه، ...وقد تصور وأنشأ في عمله في كتاب المقدمة فلسفة للتاريخ هي دون شك أعظم عمل من نوعه تمكَّن أيُّ عقل إنجازه في أيِّ زمان وأيِّ مكان."[٦]

وقد أخذ ابن خلدون المفهوم القرآني للعُمران، وجعله عَلَماً على عِلْمٍ جديد يدرس حياة الناس وما يطرأ على هذه الحياة من تحولات وتبدلات، وما ينشأ فيها من علاقات ومؤسسات، سمَّاه علمَ العُمران البشري، أو علم الاجتماع، أو حالة الحضارة. وقد أعلن ابن خلدون ولادة علم العمران، وتخطيط منهجيته، داعياً من يأتي بعد لاستكمال البحث في موضوعاته وقضاياه فهو يقول: "...عَزَمْنا أنْ نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه ... ولعلَّ من يأتي بَعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغُوصُ من مسائِلِه على أكثر ما كتبنا، فليس على مستنبط الفنِّ إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضوع العلم، وتنويع

---

[٥] ملكاوي، فتحي. ملحوظات حول الدرسات الخلدونية (كلمة التحرير)، **مجلة إسلامية المعرفة**، السنة الثالثة عشرة، العدد٥٠، خريف ٢٠٠٧م، ص٧-١٦.

6 Tonybee, Arnold. *A Study of History: The Growths of Civilizations,* New York: Oxford University Press, 1962, Vol. 3, pp. 321-328.

فصوله، وما يتكلم فيه، والمتأخرون يُلحِقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل. والله يعلم وأنتم لا تعلمون."[٧]

في مقدمة "المقدمة" ينتقل ابن خلدون من التاريخ –الذي هو خبر– إلى موضوع التاريخ وهو عمران العالَم وحالات هذا العالم: "اعلم أنَّه لما كانت حقيقة التاريخ أنَّه خبرٌ عن الاجتماع الإنساني الذي هو عِمران العالَم، وما يعرض لطبيعة ذلك العُمران من الأحوال، مثل التوحُّش والتآنس والعصبيات وأصناف التغلُّبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من المُلْك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال..."[٨]

والهدف من هذا العلم هو تحويل غاية المؤرخ من سرد الأخبار، وتصيد الغرائب، إلى وضع قانون: "في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه." "وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فإنَّه ذو موضوع وهو العمران البشري، والاجتماع الإنساني، وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال."[٩]

وربّما كان للظروف المتقلبة والمآسي المتكررة التي شهدها ابن خلدون في حياته أثر في رغبته في خلوة "في قلعة ابن سلامة" تمكِّنه من التدبُّر والتفكُّر، وليكتب تجربته وخبرته حول ما آلت إليه أحوال الأمة لذلك العهد، ويستنبط من ذلك بعض قوانين العمران البشري، في مسائل اجتماعية عديدة شملت النفس الإنسانية، وتاريخ الأمم والحضارات، والبيئة الجغرافية، وشؤون الملك والسياسة، ومسائل الاقتصاد والثروة، ومبادئ الاجتماع البشري، ومناهج التربية، وغير ذلك.

---

[٧] ابن خلدون، عبد الرحمن. **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ج٣، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ص١٢١٣.

[٨] المرجع السابق، ص٣٢٩.

[٩] المرجع السابق، ص٣٣٢.

ويبدو أنَّ سنَّة الله في حياة المجتمعات البشرية تقتضي أنْ يرافق العمران البشري ركونٌ إلى الدعة والانغماس في الترف، مما يؤدي إلى خلل في أسباب القوة والتماسك، ومن ثم في ضعف الأمة المترفة وانهيار حضارتها لتخْلُفَها بعد ذلك أمَّةٌ أخرى أكثر فتُوَّة وأشدّ عصبية وتماسكاً، فتأخذ دورتها فترة من الزمن، ثم تدول دولتها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠) ولأجل ذلك فإنَّ الدلالة التي أعطاها ابن خلدون للحضارة والعمران البشري ترتبط بالوصول إلى مرحلة الضعف وبداية الانهيار أكثر مما ترتبط بالدلالة السائدة، التي تعطي للحضارة والعمران معنى التقدم والرقي.

وقد تميَّز ابن خلدون في فهمه للتاريخ والاجتماع البشري، وعلاقته بالكون الطبيعي وسنن الوجود، بمزايا واضحة تماماً، بالقياس إلى غيره ممن عالج هذه الموضوعات. فالمجتمع الإنساني كان موضع تأمل ونظر من مفكرين آخرين قبل ابن خلدون مثل أفلاطون وأرسطو والفارابي وأوغسطين، لكن التصور النظري الفلسفي الذي طغى على جهودهم، لم يقترب من الوقائع والطبائع الاجتماعية في حياة البشر، لأنَّ همَّهُم كان همّاً غائياً معيارياً يحدد ما يجب أن يكون عليه المجتمع. وفي المقابل فإن ابن خلدون قد اعتمد في دراسته للمجتمع على ما يحدث في المجتمع فعلاً، بحكم خبرته العملية في المجتمع، مع أنّه لم يغفل عما يجب أن يكون عليه المجتمع في الصورة الغائية المعيارية، ولكن ليس في إطار نظرة فلسفية مجردة، بل في إطار الهدي الإلهي، كما فهمه من القرآن الكريم. لذلك فإنّه جمع بين التقرير الوصفي والتحديد المعياري، وتحدَّث عن عالم الشهادة دون أن يغفل عالم الغيب، واعتمد العقل دون أن ينسى النقل.

لكن الميزة الأكثر أهمية في فهم ابن خلدون للعمران البشري أنه لا سبيل إلى فهم طبيعة العمران دون فهم قوانين الاجتماع الإنساني وطبائع هذا الاجتماع، لأن ما يحدث فعلاً إنما يكون وفق سنن تشبه سنن الكون الأخرى، التي تجري في عالم الأشياء المادية، لذلك لا بد من دراسة الأحداث والوقائع الاجتماعية وفق منهج منظم، لا يتجاوز الوقائع والطبائع. "فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكن والاستحالة، أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميَّزَ ما يلحقه من

الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه..."[١٠] ولذلك فإنَّ ابن خلدون لَمَّا حدَّد موضوع علم العمران ومسائله، ختم هذا التحديد قائلاً: "وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعياً كان أو عقلياً."[١١]

ولعلَّ هذه دعوة تتوجه إلى دعاة الإصلاح والتغيير في مجتمعات المسلمين اليوم بضرورة دراسة قوانين التغيير في العقول والنفوس، وفي الواقع الاجتماعي، ومن ثَمَّ يتمَّ التخطيط لجهود الإصلاح، ووضع برامجها ونشاطاتها بناءً على علم ومعرفة بتلك القوانين. فتغيير الواقع لا يتحقق بتجارب شخصية محدودة، أو بخبرات بادي الرأي ممن تدفع بهم الظروف إلى مقدمة الصفوف، أو برفع شعارات دون برامج علمية وعملية، مهما كانت هذه الشعارات صحيحة في ذاتها ودلالاتها. كذلك فإن تغيير الواقع لا يتحقق بتمنيات المخلصين في قلوبهم مهما ارْتَجَّت هذه القلوب، ولا بدعوات المؤمنين في صلواتهم، مهما ارتفعت أصواتهم بالدعاء!

ثم إن ابن خلدون وهو يستنبط علم العمران، لا يفعل ذلك اتباعاً لمن سبقه من أهل العلم أو سيراً على خطاهم، سواءً كانوا من علماء المسلمين أو علماء الأمم الأخرى، وإنَّما يفعل ذلك عن وعي بما أنجزه العلماء قبله في جهودهم لفهم العمران البشري، وأنَّ ما أنجزوه لم يكن كافياً لصياغة القوانين التي بموجبها نفهم آليات التغيير والتحول والتطور في حياة البشر؛ الأمر الذي تطلب منه بذل الجهد والتفرغ "في قلعة ابن سلامة" أربعة أعوام من عمره قضاها في التدبر والتفكر والقراءة والكتابة، حتى أنجز "كتاب العبر" وكتب "المقدمة"، التي تضمنت علم العمران، فكان إنجازه فيه إبداعاً: "مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدّى إليه الغوص... وكأنَّه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة... ونحن قد ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً، وأعْثَرَنا على عِلْم جَعَلَنا سِنَّ بَكْرِة وجُهَيْنة خَبَره..."[١٢]

---

[١٠] المرجع السابق، ص٣٣٢.

[١١] المرجع السابق، والصفحة نفسها.

[١٢] المرجع السابق، ص٣٣٣-٣٣٥.

فالمسألة لا تقف عند دراسة ما عُرِف من قوانين التغيير، وإنما تتجاوز ذلك إلى إعمال العقل في تمحيص المعروف منها، واختباره، ومعرفة علاقته بموضوعات البحث ونطاقها في الزمان والمكان. وهو جهد يحتاج إلى مثل عبقرية ابن خلدون في زمانه، وقد يحتاج إلى تآزر العديد من الباحثين، يعملون منفردين، ويعملون معاً في فرق بحثية، فتتصل جهودهم، وتتكامل خبراتهم، لعلّ الله يلهمهم، ما ينتفع به الناس، من تصحيح لمواقفهم، وحل لمشكلاتهم.

خاتمة:

وهكذا فإن العمران في المصطلح القرآني هو عمران الأرض بحياة الإنسان، وعمران حياة الإنسان بالخير والعمل الصالح، والارتقاء بأسباب الحياة ومقوماتها بإنجازات عمرانية مادية ومعنوية. يتعزز معنى العمران بمعرفة ما يقابله، فهو حياة مقابل الموت، وصلاح وبناء مقابل الخراب والدمار والهلاك، كما يتعزز معنى العمران بمعرفة الأصل الذي يتفرع عنه، فالإيمان -عقلاً وقلباً، وإقامة الحياة على أساس الهدى عملاً وتطبيقاً- هو الأصل، والعمران بالنعيم الدنيوي والأخروي نتيجة: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٦٥- ٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وتأكيد القرآن الكريم على العمران بوصفة نتيجة ومنفعة مادية ربما يكون مدخلاً لبعض النفوس التي تطمع في هذه النتيجة. فإذا كان النظر العقلي والتحليل المنطقي مَدْخليْن لإيمان بعض المؤمنين، فإنَّ الوعْد ببركات السماء والأرض، وبكثرة مصادر الرزق ويُسْرِها ربَّما يكون مغرياً لنفوس أخرى كي تدخل في حظيرة الإيمان، فإذا دخلت جاء الاطمئنان واليقين نتيجة أخرى لحلاوة الإيمان في النفوس. وإنَّنا لنجد

القرآن الكريم ينوِّع في خطابه إلى الناس رحمة ورأفة بهم، وأملاً بأن ينتفع الجميع؛ ذلك أنَّ بين الناس فروقاً تستدعي هذا التنوع في الخطاب؛[١٣] فينتفع بعضهم بخطاب العقل المجرد، وينتفع بعضهم بخطاب الوجدان والمشاعر، وينتفع بعضهم بخطاب الحواس المادية والمنافع العملية.

ويشكِّل العمران البشري مع توحيد الله الخالق سبحانه، وتزكية حياة الإنسان وتطهيرها وترقيتها على مستوى الأفراد والجماعات والأمة، منظومة قيمية، تحتاج أمتنا إلى اعتمادها مصدراً لسائر القيم الرئيسية والفرعية. ويحتاج النظر في هذه المنظومة القيمية إلى مزيد من الدراسات والبحوث، التي تعمق فهمنا لها، وتشغيلها في استنباط منظومات القيم الفرعية، ونقلها من مجال الدعوة والموعظة ومجال علوم الشريعة، إلى مجال التأسيس للعلوم الإنسانية والاجتماعية والكونية، وتطبيقات هذه العلوم في تطوير مجتمعات المسلمين، لتكون هذه المجتمعات منارات هداية لغيرها من مجتمعات العالَم.

وعلى الله قصد السبيل.

[١٣] النجار، عبد المجيد. العمران والإيمان، **مجلة إسلامية المعرفة**، السنة الثانية، العدد٨، أبريل ١٩٩٧م، ص٤٠-٨٤.